٢ ـ الشاعر الذى قتل وصرقت جثته

لسان الدين بن الخطيب

للاستاذ البحاثة الشيخ احمد الكندرى

أستاذ الأدب العربى فى دار العلوم

نشرنا فى العدد الماضى أول فصل كتبه الاستاذ الجليل الشيخ أحمد الكندرى عن لسان الدين بن الخطيب آخر شاعر نابغ تذكره الأندلس، وقد تفضل الاستاذ على (المعرفة) بذلك الفصل الجديد، وليس شك فى أنه كسابقه صورة من البحث الدقيق، والدراسة المستفيضة، والتحقيق الذى لا شائبة فيه.. المحرر

علمه وأدبه:

برع ابن الخطيب فى اكثر ما يتعلم فى زمنه من: علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والعربية على اختلاف فنونها، والتاريخ بنوعيه: تاريخ الدول، وتراجم الرجال، والطب، والبيطرة، والبيزرة، والتصوف، واستوفى عدة الاديب الكاتب الشاعر الراوى من الاحاطة والحفظ للكثير من الأمثال، ومشهور المنظوم والمنثور، وله فى كل ذلك مؤلفات ومنظومات وأراجيز تبلغ نحو ستين تأليفاً، ومن أشهرها: «الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة» فى اثنى عشر سفراً، و «طرفة العصر فى دولة بنى نصر» (بنى الأحمر) فى أسفار ثلاثة، و «بستان الدول» فى أكثر من ثلاثين سفراً، و «الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة»، و «اليوسفى» فى صناعة الطب، و «روضة التعريف بالحب الشريف» و «ألفية الاصول» فى أصول الفقه — وقد شرحها المؤرخ ابن خلدون — وديوان شعره، وديوان رسائله.

١ — كتاب الاحاطة:

قال المقرى ما ملخصه: «وأما كتاب الاحاطة فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب، والمشارقة أشد إعجاباً به من المغاربة، وأكثر لهجاً بذكره، مع قلته فى هذه البلاد المشرقية، اعنى باختصاره الأديب الشهير: البدر البشتكى محمد بن ابراهيم، وسماه «مركز الاحاطة

فى أدباء غرناطة » فى مجلدين ، وقد أتى فى هذا الكتاب على نشأة مدينة غرناطة وتاريخها منذ الفتح الاسلامى ، وتاريخ سلاطين الدولة النصرية من بنى الأحمر ومناقبهم ومفاخرهم ، ووصف قلعتهم ودار ملكهم (مدينة الحمراء) وسائر الكتاب فى تراجم من انتابها من أهل الفضل والرياسة ، على نحو تاريخ دمشق لابن عساكر ، إلا أن ابن الخطيب سلك فى كتابة أكثر التراجم طريقة الثعالبى من المشارقة فى كتابه « يتيمة الدهر » وطريقة أبى نصر الفتح بن خاقان فى «قلائد العقيان» و « المطمح » وابن بسام فى «الذخيرة» من المغاربة ... من استعمال السجع والاستعارة والمبالغة فى الأوصاف المتشابهة فى أكثر التراجم ، وسنذكر طرفا من كتابته فيها عند مبحث الكتابة ، وهو فى الجملة كتاب بليغ العبارة ، لانظير له فى بابه ، رسم به أوضح صورة للعلم والأدب والتاريخ فى أيام العرب الأخيرة بالأندلس ، وقد طبع منه جزءان فى مطبعة المؤيد بالقاهرة ، وكان سلطانه محمد الغنى بالله وقف نسخاً منه على مدارس الأندلس والمغرب ، ووقف المؤلف نسخة منه على الخانقاه الصوفية سعيد السعداء فى ثمانى مجلدات قبل إتمامها .

٢ ـ بستان الدول :

وأما بستان الدول فلم نطلع عليه ، وقد وصفه «ابن الخطيب» نفسه بقوله: و « بستان الدول موضوع غريب ما سمع بمثله ، قل أن شذ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات عشر : أولها « شجرة الوزارة » ثم «شجرة الكتابة» ثم « شجرة القضاء والصلاة » ثم « شجرة الشرطة والحسبة » ثم « شجرة العمل » ثم « شجرة الجهاد » وهى فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم « شجرة ما يضطر باب الملك اليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا . . . »

قال: «وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعب وأصول وجرائم وعمد وقشر ولحاء وغصون وأوراق وزهرات مثمرة وغير مثمرة . . . .»

أقول لعله اقتبس هذا النظام فى التبويب من كتاب العقد الفريد، إلا أن هذا فى الجواهر.

٣ ـ روضة التعريف بالحب الشريف:

وهو كتاب « المحبة » باعث محنته ، وسائق منيته ، وسبب تأليفه أنه ورد على الأندلس من مصر كتاب « ديوان الصبابة » فى مصارع العشاق وأخبارهم وأشعارهم « لابن أبى حنظلة » فأعجب السلطان « محمد بن أبى الأحمر » واقترح على وزيره «لسان الدين» أن يعارضه بكتابة فى الحب، فكأنه أنف أن يجعله فى الحب الحيوانى الشهوانى، وآثر أن يجعله فى الحب الالهى، وجعله شجرة وأرضاً ، فالشجرة المحبة ، والأرض النفوس التى تغرس فيها ، والأغصان أقسامها ، والأوراق حكاياتها ، والأزهار أشعارها ، والوصول إلى الله ثمرتها ، وقد ضمنه

أكثر أغراض الصوفية ومقالاتهم وطرقهم ورموزهم ، حاكياً عنهم ، غير سالك ـ لا بالعمل ولا بالاعتقاد ـ طريقتهم .

وقد نوه فيه بمذهب القائلين من الصوفية بالوحدة المطلقة ، المسماة بوحدة الوجود ، ومعناها أن العالم بما فيه مظهر لروح الله ، لا يخلو أى فرد من أفراده من مدد منه ، وهذه المقالة وإن كانت ممكنة التأويل بما لا يخالف ظاهر الشرع ، ولا العقل فى توهم الحلول ، فكان ذكره لها مما مكن أعداءه من انتهاز الفرصة فى السعاية به ونكبته ، والعصر حينئذ عصر جمود وتنطع فى مسائل الدين ، وتظاهر بالدفاع عنه ، وذود أعدائه عن حياضه ، والتفانى فى الجهاد فى سبيله ، فكان « الحلاج » صاحب هذه المقالة أول من قتل بها فى المشرق ، و « لسان الدين » آخر من قتل بها من العظماء فى المغرب ، ولله فى خلقه شؤون .

وسلك فى كتابته طريقة السجع والخطابيات ، لا طريقة الشرح وبسط الحقائق العلمية بالترسل والأقيسة الصناعية ، وقد ذكر « المقرى » كثيراً من فصوله البليغة سنذكر بعد طرفاً منها .

منزلته فى الكتابة :

كان « ابن الخطيب » خاتمة بلغاء الأندلس ، وآخر الرؤساء الأعيان من كتاب الرسائل والتأليف ، وكان فى عدوة الأندلس يضارع « ابن خلدون » فى عدوة افريقية : فقهاً ولغة وأدباً وتاريخاً وترسلا شعراً ، بل يصرح ابن خلدون في مقدمته عند الكلام فى أصحاب الموشحات بقوله : « ثم جاء من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبدالله بن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع » وهذا تصريح منه خطير الشأن ، مع ما ذكر فى موضع آخر من تاريخه أن ابن الخطيب قلق لمكانه (أى ابن خلدون) من سلطانه ، وأخذ يغض من شأنه حتى تخوفه على نفسه وخرج من الأندلس . ونحن نقول : ليس فى كلامه إنصاف لنفسه ، وإنما حمله على ذلك تواضعه وإغفال نفسه ... نعم له العذر فى غير نفسه ، فقد كانت كتابة ابن الخطيب أرسخ قدماً فى البلاغة من كتابة رؤساء دواوين الانشاء بالمغرب ومصر والشام ، وأبعدها عن التكلف المعيب — وإن لم يتزه كل التنزيه عن لوثة طريقة المصريين فى التورية والتوجيه ، فقد عاناها ولم يحسن طريقتهم فيها .

ولا يكاد المتقصى لوجوه الفرق بين كتابته فى رسائله السلطانية ، واستغاثاته النبوية ، وتصانيفه الأدبية والتاريخية والصوفية ـ يخرج من تقصيه على كبير طائل ، فهى سجع متقارب الوزن على طريقة « ابن العميد » الشائعة بين أهل المغرب ، بها لوثة قليلة من طريقة « القاضى الفاضل » ، غير أنه يمكن وصفها بالاضافة إلى كتابة أهل زمانه ، وبخاصة أهل مصر والشام — بأمور تغلب عليها وإن لم تكن مختصة بها ، فمنها :

(البقية على الصفحة رقم ١٠٥٦)